حياة ابن خلدون

ومُثل من فلسفته الاجتماعية

محاضرة القاها الاستاذ المحقق السيد محمد الخضر
في جمعية تماون جاليات أفريقية الشمالية بالقاهرة

— ٢ —

تنكر ونشر الدراسات لابن خلدون

حاز ابن خلدون لدى ابن الاحمر رعاية ضافية فجاش الحسد فى نفوس بعض معاديه وطفقوا يسرّون لابن الخطيب مايزلزل ركن الصداقة بينه وبين ابن خلدون حتى اغبرّ صدره وبدا عليه انقباض احسّ به ابن خلدون ، فجعل وجه البلاد فى عينه قاتماً ، ولم يسعه بعد تنكر ابن الخطيب وهو القابض على مقاليد الدولة إلا أن يعتزم على الرحلة . واتفق أن وافته كتب من أبى عبد الله صاحب بجاية يستدعيه للقدوم عليه فاتخذها ذريعة لاستئذان السلطان فى الانصراف الى افريقية دون أن يطالعه على ما كان بينه وبين ابن الخطيب فامتعض فى مبدإ الامر ضنّاً بفراقه ثم ادّكر أن للحنين الى الوطن حكما لا يغالب ، فاذن له بالظعن ، واصدر فى تشييعه مرسوما من املاء ابن الخطيب ، يشهد له فيه برفعة القدر واستقامة السيرة والتحقيق فى العلم ، ويوصى قواد الدولة وأعوانها برعايته واسعافه فى كل حال

سفره الثانى الى بجاية

سافر الى بجاية سنة ٧٦٦ واقيمت له يوم مقدمه حفلة مشهودة فاركب السلطان خاصته لاستقباله وهرع اليه أهل البلد بنفوس متعطشة الى لقائه وانهالوا يمسحون اعطافه ويلثمون يده . فاجتمع له فى هذا الاحتفال اقبال الدولة وانعطاف الامة ،

وهما لا يجتمعان لشخص بانتظام إلا حيث تكون الدولة رشيدة ، واذا كانت الدولة قد تقبل على غير عظيم فان الامة لا تخلع عطفها واجلالها الا على من تقدر عظمته وتثق باخلاصه

ولايته الحجابة لسلطانه بجاية

تقلد ليوم خلا من قدومه منصب الحجابة ، وهي لدى دول المغرب : الاستقلال بادارة شؤون الملك ، والانفراد بالوساطة بين السلطان وبين أهل دولته . بيد أنه استلم زمام السياسة بعد ان نشأت بين السلطان أبي عبد الله وابن عمه ابي العباس صاحب قسنطينة فتنة نفدت التدابير دون اطفائها ، وما برحت تتأجج الى ان كانت عاقبتها قتل ابي عبد الله واستيلاء أبي العباس على بجاية

خرج ابن خلدون باسطاً يد الطاعة الى أبي العباس ولقي منه احتفاء وانعاماً وسرعان ما انكفأت عقارب السعاية به تدب حول السلطان فلم ينشب ان استأذنه في الانصراف فأجاب طلبه بعد تمنع وارتحل حتى عرج على بسكرة لصحبة كانت بينه وبين أميرها احمد بن يوسف بن مزني

انصرافه الى العلم

وما كان يمنحن به ويقاسيه من مشاكسة المنافسين له في مقاعد الرياسة ونصبهم حبائل السعاية به ، ثم تنكر السلطان له بعد الرعاية والاقبال ، صرف قلبه عن التعلق بأسباب السياسة وجعله يفرغ همته في تحقيق العلوم ودراستها . ومن أجل هذا قعد عن السفر الى أبي حمو صاحب تلمسان ، حين استدعاه ليقلده الحجابة وكتابة العلامة ، ووجه اليه أخاه يحيى ليقوم بعمل هذه الوظيفة مكانه

المراسلة بينه وبين الوزير ابن الخطيب

بعث اليه الوزير ابن الخطيب من غرناطة برسائل يشكو فيها مضض النوى ويتلهف على عهد اللقاء. وقلوب الاصدقاء قلما تتصدع بحزازات الوشاية وتعود الى عنفوان ودها الصميم ، ولكن الرقة الدافقة على ذوق ابن الخطيب ، والادب المنسجم فى مزاج خلقه الرصين ، ذهبا بأثر ماسعى به اليه قوم لايفقهون ، ونهضا به الى تأكيد صداقة انتظمت بينه وبين رجل يدانيه علما وأدباً ويضاهيه فى طرق التفكير والعمل لرقي نظام اجتماع

واذا كانت الرسائل مثالا لمنهج الرجلين فى المحاورة ساعات اللقاء فان هذه المراسلة تنبئك ان المجالس التى كانت تعقد بين هذين الوزيرين الخطيرين لم تكن مضمار علم وأدب فقط بل كانت ممتعة بالنظر فى الشؤون السياسية الداخلية والخارجية ، فقد أتى ابن الخطيب فى بعض هذه الرسائل على تفاصيل من أحوال الدولة بغرناطة وألمّ فيها بانباء عن دولة الاسبان فى اشبيلية . وكذلك تجد ابن خلدون تعرّض فى الجواب عن تلك الكتب لحوادث دول شتى فنسق فيها قسطا من الحديث عن شؤون دول تونس والجزائر والمغرب الاقصى والحجاز ومصر . ولو أن علماء الاسلام أخذوا فى هذا السبيل أينما كانوا ، ومدوا جانباً من عنايتهم الى الاطلاع على تصاريف الدول ومجارى سياستها لبلغوا منتهى السؤدد وبرءوا من تبعة وقوع الشعوب الاسلامية فى هذا البلاء المبين

مساعيه السياسية وهو فى بسكرة .

أقام ابن خلدون في بسكرة مقبلا على دراسة العلم ولم ينكث يده مع ذلك من التدخل في شؤون الدولة فكان يشايع أبا حمو صاحب تلمسان حين نهض يجلب بخيله ورجله على بجاية ، فكان وسيلةً الى توثيق عرا الصلة بينه وبين السلطان

أبي اسحاق صاحب تونس وحمل بعض القبائل على مناصرته حتى سار اليه بطائفة من قبيل الذواودة والتقى به فى البطحاء ثم قفل معه راجعا الى تلمسان اذ بلغ اباحمو ان السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الاقصى يتحفز للوثوب على تلمسان . ولما اقتربت ساعة استيلائه عليها وأخذ أبو حمو في أهبة الانجلاء عنها الى الصحراء اعتزم ابن خلدون على الارتحال الى الاندلس وحمّله ابو حمو رسالة الى ابن الاحمر صاحب غرناطة فاتصل نبأ سفره بالسلطان عبد العزيز ونمى اليه انه يحمل وديعة الى ابن الاحمر فانفذ اليه سرية اعترضت سبيله فلم تلق عنده ما يحقق هذه التهمة وانقلبت به الى السلطان فلقيه حوالي تلمسان فقضى ليلته فى اعتقال وفى الغد اطلق سبيله فانصرف الى رباط الشيخ أبي مدين ونزل بجواره على قصد التفرغ للعلم ونشر دروه الشائكة بين يدي طلابه

استدعاؤه الى فاس

ولم يزل متمتعا بحياة علمية خالصة حتى استدعاه السلطان عبد العزيز وأوعز اليه فى الخروج الى بلاد رياح ليجمعهم على طاعته ومناصرته فانبعث يعمل فى هذا السبيل بكلمة نافذة ودعاية ناجحة الى ان قضى المأرب وبلغ الغاية المنشودة ، وكان يسعى الى هذه المهمة السياسية وهو مقيم ببسكرة فى جوار أميرها احمد بن يوسف بن مزنى الذى هو صاحب زمام رياح ، وما راع ابنَ خلدون الا ان أخذ حساده ينفثون سموم الوشاية فى اذن احمد بن مزنى فهاجوا غيرته وأوغروا صدره حتى تنفس بالشكوى منه الى صاحب شورى السلطان وترمار بن عريف ورفع صاحب الشورى هذه الشكوى الى السلطان ، فما كان من نظره الا ان استدعى ابن خلدون الى حاضرة فاس ، فخرج بأهله وولده . ولقيه في الطريق نعي السلطان وتولية ابنه الصبي ابي بكر السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي فدخل فاس

وكان له مع الوزير سابق صحبة نادرٌ عليه من معصرات بره وكرامته فوق ما يحتسب، وظل عاكفاً على التدريس صارفاً همته الى الوجهة العلمية الى أن ظهر السلطان احمد بن أبي سالم على الوزير ابي بكر بن غازي واجتذب مقاليد الامر من يده، ولم يستقر به الحال حتى قام وزيره محمد بن عثمان يدخل عليه الريبة من جانب ابن خلدون ويغريه بالقبض عليه. وتما هذا الوزير بأول من ازدهت به الرياسة وتطوحت به في غرور حتى عمى عليه أن لأعاظم الرجال كابن خلدون تاريخاً باقياً وصحائف لا تغادر صغيرة ولا كبيرة من مجاملة أهل عصره له أو اساءتهم الا أحصتها

عودته الى الاندلس سنة ٧٧٦

قبض عليه السلطان ابن أبي سالم وسرعان ما نهض الى خلاصه الامير عبد الرحمن الذي شارك السلطان في حرب الوزير أبي غازي واتفق معه على أن يستقل بولاية مراكش وأعمالها ولم يطمئن به المقام بعد أن رأى من تنكر السلطان وسوء طوية وزيره ما رأى، فابتغى الوسيلة الى إذن السلطان له بالانصراف الى الاندلس ليتفرغ للعلم ومدارسته في ظل دولة ابن الاحمر الذي أولاه في رحلته الاولى سابغ الكرامة والانعام، ولم يظفر بالجواز الا بعد تسويف وعلى رغم من وزيره ورجال دولته

دخل الأندلس سنة ٧٧٦ فجرى السلطان على عادته من بسط يد الاكرام وانزاله منزلة الاحتفاء والرعاية الى أن وفد على غرناطة مسعود بن ماسي من حاضرة فاس وأبلغ السلطان باغراء من رجال دولتها أن ابن خلدون كان يبذل مساعيه وجاهه في خلاص لسان الدين بن الخطيب [1]، فانقلب عطف السلطان

(١) كان لسان الدين بن الخطيب بفضل ماله من التبحر في العلم والادب والخبرة بمذاهب السياسة قبض على زمام دولة ابن الاحمر وانفرد بالتصرف في شؤونها فشجيت به بطانة السلطان وحاشيته وانسابوا الى السعاية به من كل حدب حتى احس بانها اخذت من السلطان مأخذ القبول فاحتال للتخلص من الاندلس والتجأ الى السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الاقصى وبقي في ظل

عليه جفاء وأنسه به وحشة واجلاه الى العدوة من بلاد المغرب الأقصى

وموضع العبرة فى هذه الواقعة انك تقارن بين عودتيه من الاندلس فتجده فى المرة الاولى قفل من غرناطة والسلطان يبسط له يد المجاملة ويودعه بقلب يأسف لفراقه ، ثم هو متوجه نحو بجاية والدولة متأهبة لاستقباله باجمل مايتصور من مظاهر الاحتفاء . وتراه في هذه المرة انصرف عنها والسلطان يكره اقامته وتطوى عنه بساط أنسه ، خرج وهو لايدري أين يلقى عصا التسيار : هذه دولة الاندلس تنفيه من أرضها ، وتلك دولة المغرب الاقصى تلحظه بعين الحذق وترمى من ورائه بسهام الكيد والاذى ، وهذا ابو حمو صاحب تلمسان لم يزل ينقم عليه مشايعته للسلطان عبد العزيز وسعيه في صرف وجوه العرب عنه يوم كان طريدا فى الصحراء . بيد ان ابا حمو كان على روية لايفوتها ان الاخذ فى معاملة رجل خطير كابن خلدون بالرفق والاناة انما توضع فى حساب الحسنات التى ينوه بها التاريخ ويرتفق بها شأن دولته فسمح له بدخول تلمسان فجاءها وقد ذاق من صروف السياسة عذاب الهون فما كان الا ان تجرد للقراءة ولم يشغل وقته بسوى المذاكرة فى العلم ودراسته

وقد يكون انحراق الدولة عن النابغة أو اضطهادها له أشد داعية الى بذله كل مايملك من الجد والاهتمام فى توسيع دائرة معارفه أو الحذق فى صناعة التأليف أو الاستنباط ، فان الكدر الذى قد يثيره تغلبها عن مكانه أو بخسها من قيمته انما يكشفه ارتياح النفس وتمتعها باستطلاع حقائق العلوم التى هى اصفى لذة وابقى سؤددا من نيل الحظوة والقرب من مجالس الامراء

رعايته ثم فى حماية الوزير ابي بكر بن غازى من بعده . ولما استولى احمد بن ابي سالم على حاضرة فاس حبسها فصصناه فى المحاضرة وكان استيلاؤه عليها بمساعدة وموالاة من السلطان ابن الاحمر قام سليمان بن داود يعزي السلطان بالقبض عليه فاودعوه السجن وائتمروا على قتله بدعوى انه وقعت له كلمات فى كتاب المحبة تنطق بزندقته . ثم اوعز سليمان بن داود الى بعض الاوغاد بقتله فهجموا عليه ليلا وقتلوه خنقا فى محبسه .